فقير

تأليف: جورج جسنج

ترجمة: أمين روفائيل

القصة القصيرة المنثورة لون حديث من ألوان الأدب فى الانجليزية ، فهى فى صيغتها الحاضرة من نتاج القرن التاسع عشر بشكل رئيسى . وقد أسهم فى تطويرها واحكام بنائها فى هذا القرن كتاب ممتازون ممن مارسوا القصة الطويلة ، ومن هؤلاء جورج جسنج ، كاتب هذه القصة . ويبرز بين موضوعاته فى قصصه وصف البيئة التى تعيش فيها الطبقات الفقيرة وصفا واقعيا أليما ، والآثار الوخيمة التى يتركها الفقر فى أخلاقها ، وما يعانى من عذاب وشعور بخيبة الرجاء ذوو النفوس الحساسة وأصحاب المواهب العقلية والفنية الذين يحيون غرباء فى ظروف اجتماعية قاسية تجافى ذوقهم وأهدافهم ، وتقضى على طموحهم .

المترجم

فى حجرة الاستقبال بعد العشاء تهاوت مسز تشارمان البـــادنة الطيبة النفس فى كرسى ، وسألت وهى تتنهد :

« الى اى حد تحبين السيد تمبرلى ؟ » .

« لطيف جدا ، ولكنه غريب بعض الشىء » .

« أوه ، انه غريب ! غريب الأطوار حقا . اردت أن أتحـــدث اليك فى شانه قبل أن ننزل الدرج ، ولكن الوقت لم يتسع . انه صديق لنا منذ زمن طويل . كان هو وزوجى العزيز فى المدرسة معا ـ رفيقـين فى هارو ، وهو من أكثر الناس رقة وحنانا ، واخشى أن يكون أطيب من أن يعيش فى هذا العالم ، فهو ينظر الى كل شىء بعين الجـــد . ولن أنسى جزعه لموت زوجى المسكين ـ انى أتحدث الى مسز لورنج عن السيد تمبرلى يا آدا . »

خاطبت بهذه العبارة ابنتها المتزوجة ـ شابة هادئة لها وجه مسز تشارمان الوديع ، وان كان يظهر عليه ما يدل على ذكاء أوفر ـ تأمل رزين من نوع رفيع .

فلاحظت مسز وير وهى تجيب : « يؤسفنى ان أراه أبعد ما يكون عن أن يبدو بخير » .

« كان دائمـا شـاحب اللون كما تعلمين ، وحياته ... » ثم استانفت تخاطب مسز لورنج : « ولكن ينبغى أن اخبرك انه أعزب يعيش عيشة ناعمة وهل تصدقين ـ انه يقيم وحده فى حى من احياء لندن البائسة . اى حى هو يا آدا ؟ »

« شارع فقير فى اسلنجتون . »

« نعم ، يعيش هناك ، وأخشى أن يكون ذلك فى مسكن زرى ـ ولابد أنه غير صحى ـ كى يلم بحياة الفقراء ويســـاعدهم . أليس هذا من أعمال البطولة ؟ ويظهر انه وقف حياته كلها على ذلك ، فلم يعد يراه أحد فى أى مكان . وأعتقد انه لا يرى الا فى بيتنـــا . حياة نبيلة ! وهو لا يتحدث فى ذلك أبدا ، وانى واثقة أن حديثه فى أثناء العشاء لم يكن فيه ما يبين لك عن هذا الأمر . »

فأجابت مسز لورنج فى عجب : « حقا ، فقد كان قليل الكلام الى حد بعيد ـ وقد أدركت أن أهم ما يشـــغله هو المصنوعات الخشـبية والسياسة الخارجية . »

ضـــحكت مسز وير : « ذلك هو الرجل ! لقد كان يصنع لى بمنشاره وانا فتاة صغيرة الوانا من الأشياء البـديعة ، ولما شببت كان يلقى على دروسا فى التوازن الدولى . ومن المحتمل يا أمى انه يكتب مقالات رئيســـية لا ندرى من أمرها شيئا . »

« لا اســـتبعد شـيئا على السيد تمبرلى يا عزيزتى . وأى تغير هذا بعد حياته فى الريف حيث كان له بيت جميل بالقرب من بيتنـــا فى باركشير ، ولا يسعنى الا أن أعتقد أن موت زوجى هو الذى حمله على ترك هـذا البيت ، فقد كان شديد الكلف بالسيد تشارمان ! وبعد أن مات زوجى ، وتركنا باركشير لم نره قط ـ أوه ، خلال عامين . ثم التقيت به مصادفة فى لندن . وتعتقد اذا انه لابد أن هناك علاقة عاطفية كذبت رجاءه . »

فقاطعتها الابنـــة : « لست أنا التى قلت ذلك ، بل أنت يا أمى العزيزة . »

« أنا ؟ حسنا ، ربما ، فالمرء لا يستطيع الا أن يلحظ انه عانى شيئا . وقد لا يعدو هذا رثاءه للفقراء الذين وهبهم حياته . رجل رائع ! »

ولما سمعت أصوات رجال عنـــد باب حجرة الاستقبال ، راحت مسز لورنج تتفقـــد السيد الغريب الأطوار فى شغف . كان آخر من دخل ـ رجل أميل الى الطول ، ولكنه شديد الانحناء عند الكتفين ، نحيل غير رشيق ، يخطو فى غير

ثبات ، ويتسم مسلكه بالحياء . وكانت عيناه بلونهما الرمادى الحائل ، وتعبيرهما الشديد الوداعة ، تتجهان هنا وهناك من تحت جبهة طاطأها فى اضطراب ، وعلى شفتيه ترقرقت ابتسامة يشيع فيها انكار الذات . بدا شعره يسقط ويغشاه الشيب ، ولكن شاربه كان كثيفا ، وكان لكثافته أكثر ملاءمة لملامح أشد صرامة . وبينما هو يدخل فى الحجرة ـ او يسترق الخطى اليها ـ كانت يداه تنقبضان وتنبسطان على نحو يثير الضحك . وقد ميزه من جماعة الرجال شىء ليس هو الرثاثة تماما ، بل ما كان يعوزه من رونق وصقل . ويتبين من ينعم النظر ان سترته كانت من طراز مر عليه بعض السنين . كان قميصه نظيفا ، ولكنه لم يتحل بمجوهرات من اى نوع ، فلم يكن يرى سوى زر صغير أسود فى الصدر ، وزرين من صنفه البسيط فى الكمين .

اتخذ طريقه الى ركن ، وهناك ود لو انه قبع وحده فى سلام وان يكن ذلك فى الظاهر ، ولكن سرعان ما انتقلت مسز وبر الى مقعد بجانبه .

« آمل ألا تبقى فى المدينة خلال اغسطس يا سيد تمبرلى ؟ » .

« لا ! ـ أوه لا ! اوه لا ، لا اعتقد ! » .

« ولكن ـ يظهر أنك لم تستقر على رأى . معذرة اذا قلت انى واثقة انك فى حاجة الى التغيير . هل تدرى أنك حقا لا تبدو بخير . هلا أستطيع اقناعك بأن تلقانا فى لوسيون . سيسر زوجى جدا ـ سيبتهج بالحديث اليك فى شئون أوربة . أعطنا أسبوعين ـ افعل ذلك ! » .

« انت العطف بعينه يا عزيزتى مسز وبر ! وانى أشعر بأعمق العرفان ، ولست مستطيعا ان أعبر فى يسر عن شعورى بعظيم برك وودك . ولكنى فى الحقيقة أكاد أكون قد ارتبطت بأصدقاء آخرين . حقيقة ، أعتقد انه يمكننى القول بأنى فعلا .. نعم ، حقا ان الأمر كذلك . »

تكلم بصوت رفيع كصوت النساى ، وبنطق سليم يقارب نطق قسيس واهن ، وبابتسام كاد فى تعبيره يختلط بالدموع ، وهو يلف ويدور فى ارتباك بعباراته التى كانت تقصر شيئا فشيئا . وجعلت يداه الطويلتان النحيلتان تعتصر احداهما الأخرى حتى أبيض ظهرهما .

« حسنا ، ما دمت تزمع ترك المدينة . ولكن أشد ما أخافه ان يغلبك ضميرك على امرك . وأنت تعلم انك لن تنفع أحدا اذا عرضت نفسك للعلة . »

« هذا جلى ! ـ ها ، ها ! ـ أؤكد لك أن هذه الحقيقة واضحة لى ، فللصحة الاعتبار الأول ، وليس ثمة ما يقلل من فائدة المرء أكثر من ... معتلة . أوه ، هذا أمر محقق ، أمر محقق ! » .

« هناك ما يكلفك اشفاقك على الفقراء من ارهاق ، ولهذا تأثيره فى سلامة الجسم من غير شك . هذا بالاضافة الى جو غير صحى . »

« ولكن اسلنجتون ليست مكانا غير صحى يا عزيزتى مسز وبر ! صدقينى ان فى الهواء خاصة تبعث القوة فى الجسم فى معظم الأحيان . ويجب أن تتذكرى أننا على مرتفع عال . ولسنا نود الا شيئا واحدا ـ نود لو أمكننا ان نخمد بعض الشىء ذلك الدخان الفار الذى يتصاعد من مداخن البيوت والمصانع ! ـ أوه ، أؤكد لك أن اسلنجتون فيها كل ما يعود على الصحة بالفائدة من مميزات طبيعية . »

وقبيل نهاية الأمسية عزفت بعض قطع الموسيقى التى لاح أن السيد تمبرلى استمتع بها

كثيرا ، فترك رأسه يميل الى الخلف ، محملقا الى فوق ، وظل فى هذا الوضع منتشيا بضع لحظات بعد أن توقفت الموسيقى ، ثم أفاق بزفرة آخر الأمر .

وعندما انصرف من المنزل ارتدى معطفا اشد ثقلا مما يتطلبه ذلك الفصل من فصول السنة ، ووضع فى جيبيه حـــذاء السهرة . وبقبعة من اللبد الصلب ، عالية الوســـط ، بدأ يمشى ممسكا بمظلة مقفلة فى غير نظام مشية نشيطة كما لو كان متجها الى المحطـــة المجاورة . ولكن المحطة لم تكن هدفه ، ولا السيارات العامة . فقد تابع سيره فى الليل العطر بخطوة ثابتة ، خطوة من اعتاد الرياضة مشيا على القدم ـ من نوتنج هل جيت الى ماربل آرش ، ومن ماربل آرش الى شارع أكسفورد الجديد ، ومن هناك اخترق شارع ثيوبولد الى بتونفيل . واستمر مصعدا حتى بلغ مرتفعات حيـــه الصحى . وبعد منتصف الليل بفترة غير قصـــيرة ، سلك حارة ضيقة تراءت فى ضوء القمر الشاحب لائقة ولكنها غير جـــذابة . وبمفتاح معه دخل بيتا صغيرا انبعثت منه رائحة الفراء . أوقد ما تبقى من شمعة وجـــدها فى جيبـــه ، وصعد فى السلم مجموعتين من الدرج الى حجـــرة نوم خلفيـــة مساحتها ثمانى أقدام فى سبع ونصف ، وبعد انقضاء دقائق قليلة كان على فراشه وقد أخذه نوم عميق .

استيقظ فى الساعة الثامنة ـ وكان ينبئه بالزمن جرس يدق فى الحى ـ وارتدى ملابسه فى عجلة واضطراب ، ولما فتح باب الحجرة وجد على الأرض فى الخارج صينية عليها أقل قـــدر من طعام الافطار : نصف زجاجـــة من اللبن ، وخبز وزبد . وفى الساعة التاسعة هبط على السلم ، ونقر باب حجرة الجلوس الأمامية فى أدب ، فأذن له فى الدخول صوت خشن . كان بالحجرة رجل تقـــدمت به السن وفتاة يؤديان عمل اليوم ، وهو تجليد الكتب .

قال السيد تمبرلى وهو يحنى رأسه : « سعدت صباحا يا سيدى . سعدت صباحا يا مس سجز . يوم صاف ! مشرق ! كم ينعش المرء مثل هذا اليوم ! » .

وقف يفرك يديه كما يفعل الانسان فى صباح يوم لاذع الصقيع ، وبايماءة جافة حياه المجلد ، معينا له من فوره عملا ، جعل السيد تمبرلى يباشره جادا مجتهدا ، فقد كان يتعلم أوليات الصناعة فى ذلك الفن ، وكان يعمل بصبر ويمظهر من أوتى بعض الميل الطبيعى خلال ساعات العمل فى أثناء النهار .

الى هذه الحال من الضيق انتهى تمبرلى ، ذلك السيد من أهل باركشير ، الذى عاش فى الماضى فى بحبوحة وظروف كريمة لا اسراف فيها ، من استثمار ماله استثمارا مأمون العواقب ، والذى تعلم فى هارو وتخرج فى كمبردج ، وظلت تشغله فكرة اختيار مهنة حتى بان له بوجه عام أن فرصة احتراف أية مهنة قد ضاعت . ولما لم يكن به من حاجة الى مثل هذا العناء أخلد الى حياة الكسل البرىء بالقرب من البيت الريفى الذى اتخذه مسكنا له صديقه السيد تشارمان ، أحد أصحاب النفوذ والثراء . واتجه تفكيره ، والسنين تمضى هادئة ، نحو الزواج مرة أو مرتين ، ولكن تهيبا عميقا حال بينه وبين الشروع فيه . وقد عرف آخر الأمر أنه ولد لحياة العزوبة ، وبهذه الحياة قنع . وما كان اسعد حاله لو أنه تبين بمثل هذا الوضوح زيف ضروب أخرى من الاغراء ! ففى لحظة منحوسة استمع للسيد تشارمان الذى اعتاد أن يتحدث فى المضاربات والشركات والأرباح البراقة . ولم يغره هذا كله من أجل نفسه فقد كان لديه أكثر مما يكفيه ، ولكنه فكر فى أخته ، زوج محام اقليمى غير موفق ، وفى أبنائها الستة ، وسره أن يمد لهم يد العون ، كشأن الخال الغنى فى القصص ، حين يبدأون فى الدنيا حياتهم العملية . وثق بالسيد تشارمان ثقة لا يعرف الشك اليها سبيلا ، وكانت عاقبة ذلك أن وجد نفسه ذات صباح يرتجف على حافة الخراب . ثم تأكدت الأخبار ، وفقد ماله .

لم يدر من أمر هذا شيئا سوى السيد تشارمان ، وقد مرض بعد ذلك بأيام قلائل مرض الموت ، وكان نصيبه هينا من الخسارة التى أدت بصديقه الى كارثة فادحة . ولم يفه السيد تمبرلى بكلمة واحدة للأرملة ، وكذلك لم يقل كلمة واحدة لانسان غير المحامى الذى رتب شئونه فى هدوء ، والأخت التى أصبح على أبنائها ألا يعولوا على معونة خالهم . ثم اختفى فى غير ضجة ، فى أثناء غياب جيرانه الأصدقاء ، بعد موت السيد تشارمان .

حينئذ ناهز السيد الفقير الأربعين ، وقد بقى له مقدار من المال لم يجرؤ على انفاقه ، كان استثماره يغل له دخلا لا يكاد يكفل لعامل عيشة الكفاف . ولما كانت لندن المكان الوحيد الذى يستطيع أن يأوى اليه ، لأنها المكان الوحيد المأمون الذى يمكن أن يستتر فيه ، فقد انتقل اليها . ولم يتعلم من فوره فن مكافحة الهلاك جوعا بأقل الموارد . ففى الأيام الأولى لمحنته بلغ منه اليأس أقصاه ، بتأثير الجوع والهوان ، فتناسى شيئا من كبريائه ، وكتب لأحد معارفه يطلب النصيحة والمعونة بنفوذه . ولكن ما من أحد سوى رجل فى موقف السيد تمبرلى يعرف أن النصيحة الطيبة لا تجدى خيرا ، وأن النفوذ الاجتماعى لا يغنى فتيلا . فلو قد استجدى نقودا لتسلم صكا مقرونا بكلمات العطف لا محالة ، ولكنه كان يربأ عن ذلك بنفسه .

التمس الكسب من طريق تسلية كان يلهو بها فى الماضى وهى المصنوعات الخشبية ، وأصاب بعض التوفيق ، فحصل على نصف جنيه فى ستة أشهر ، ولكن التطلع الى اضافة جنيه كل عام الى أرباحه الضئيلة لم يثلج صدره كثيرا .

كان يعيش طوال هذا الوقت بطبيعة الحال فى عزلة تامة ، فالفقر أعظم ما يعلم الاعتزال ، الا أن يكون المرء من طبقة نشأت فيه . فحين يجد رجل دقيق الحس أنه لم يعد كفئا لأقرانه الطبعيين ، ينقطع لنفسه ، ويتبين فى شىء من العجب كيف أن الناس لا يترددون فى أن يغفلوا وجوده . وفى لنـــدن ، تلك البرية التى تغص بالزاهدين الذين يختـــارون العزلة أو يضطرون اليها ، ما أكثر ما تبين السيد تمبرلى اخوانا فى الوحدة وهو يجول فى الشوارع والمتنزهات ، أو يقطع الوقت فى المتاحف ومعارض الصور التى لم يكلفه دخولها شيئا : فهم النظرة المسترقة التى لاقت نظرته ، وقرأ الوجه النحيل ، ولاحظ بادراك وعطف الزى الحسن الذى أبلاه الزمن . أولئك البشر المنزوون لا يتبادلون الأسرار ، وهم يودون لو قد تكلموا ، ولـكن كبرياءهم تفرض عليهم التنـــائى ، فيمضى كل منهم فى صمت ، بلا صديق ، حتى يجـــد نفسه ، اذا أسعده الحظ ، فى مستشفى أو ملجأ للفقراء . وحينئذ ينطلق اللسان من عقاله ، ويصب القلب المكلوم على العالم ما شاء من لوم .

حكمة غريبـــة تلك التى يؤتاها رجل فى هذه الظروف . فهو يتعلم اقتصـــادا يثير العجب ، ويعجز باعتزاز اذ يكتشف أخيرا أنه ما أقل المال الذى يحتاج اليه المرء ليقيم به أوده . ولو سئل السيد تمبرلى فى الأيام الخوالى لقرر أن عجز مرتزقة الفيش باقل من دخـــل معـــين أمر بديهى . ولكنه وجد أن الانسان يستطيع أن يحيا فى يومه بقروش زهيدة : عرف أسعار ما يتناول من مأكل ، وتعلم القيمـــة الغذائيـــة فى ألوان الطعام ، وبان له وقد أصبح نباتيا برغم أنفه أن الغذاء النباتى نافع لصحته . وكثيرا ما ألقى على نفسه خطبا تفيض بالازدراء لعادات الجماهير من أكلة اللحم . اضطر الى الاقـــلاع عن الخمر ، وتمنى أن يؤدى فى الحال شهادته على منصة فى جمع ينادى بالامتناع عنها . فى هـــذا كله وجد الرضا ، ووجد تعويضا عن فقد كثير مما يؤدى به حق نفسه عليه .

وحدث ذات يوم وهو فى بنك انجلترا يتسلم ما بقى له من أرباح ضئيلة مثيرة للاشفاق ، تلك التى كان يقبضها كل ثلاثة أشـــهر ، أن رأته سيدة وعرفته : كانت ارملة السيد تشارمان .

« يا للعجب ! ماذا دهاك كل هـــذا الوقت يا ســـيد تمبرلى ؟ لماذا لم تصل الى أية أخبار منك ؟ هل كنت حقا ، كما أنبأنى أحد الناس ، تعيش فى الخارج ؟ » .

ضاق صدره لهـذا أشد الضيق ، حتى أنه ردد بطريقة آليـــة آخر كلمة قالتها السيدة : « فى الخارج » .

لم تتح له الوقت ليزيد على هذا ، فقد استمرت تقول : « ولكن لماذا لم تكتب لنا ؟ ما أقساك ؟ لماذا سافرت دون أن تقول كلمة ؟ تقول ابنتى اننا لابد أن نكون قد أســـأنا اليك على نحو ما من حيث لا ندرى . فسر ذلك ! حقـــا لم يكن هناك ما ـ » .

« أنا وحدى الذى يستحق اللوم يا عزيزتى مسز تشـــارمان . انى ... التفسير عسير ، لكثرة ما يكتنفه من تفصـــيلات . أتوسل اليك أن تفسرى سلوكى الذى لا مسوغ له على أنه ـ مجرد شذوذ . »

« آوه ، يجب أن تحضر لزيارتى . هل تعلم ان أدا قد تزوجت . نعم ، تزوجت منذ قرابة عام . وستبتهج جـــدا برؤيتك ثانية ، فلطالما تحدثت عنك . متى تستطيع أن تتعشى معنا ؟ غـــدا ؟ » .

« هذا يسعدنى ـ يسعدنى جدا . »

« جميل ! »

اعطته عنوانها وافترقا .

لم ييأس السيد تمبرلى من استعادة مكانته فى عالمه الذى ولد فيه ، ودليل ذلك أنه احتفظ بعناية بحلة السهرة والحذاء اللامع الملائم لها . تلك الأشياء التى بدت له من أمارات الترف ، كثيرا ما راودته نفسه بصورة أليمة أن يبيعها . وقد ارتهن الحلة غير مرة نظير بضع شلنات قبيل آخر الأشهر الثلاثة بما كان يلقى فيها من حرمان ، ولكن فراقه لها ، وهى رمز العزة السامى ، كان يعنى اليأس ـ وهو حالة نفسية بعيـــدة عن قدرته على التجلد السلبى . ذهبت مجوهراته ، حتى الساعة والسلسلة ، منـــذ عهد بعيد ، فمثل وسائل الزينة هذه ليس مما لا يستغنى عنه سيد فى زيه . وقد اغتبط الآن لبعد نظره لأن لقاءه لمسز تشارمان سره بقدر ما بلبل خاطره . ملأ قلبه فرحا التطلع الى فضاء أمسية فى المجتمع ، فاسرع الى بيته ، وفحص حلة الحفلات فى شغف وتدقيق ، فلم يجد فيها عيبا جسيما . ومع ذلك كان لابد من شراء قميص وبنيقة ورباط للرقبة ، ولحسن الحظ كان لديه ما ينفقـــه فى هـــذا السبيل . ولـــكن كيف يفسر ســـلوكه ؟ هل يستطيع أن يعترف بمكان سكنه وبفقره المدقع ؟ لو فعـــل لكان ذلك بمثابة استعطاف لأصدقائه القدماء ، ومن هذا انكمش مشمئزا ، فليس مما يطيقه رجل مهذب أن يكشف القناع عن ظروف قد تبعث الألم ، اذا كان فى وسعه أن يتجنب ذلك . هل كان عليه اذن أن يقول كذبا أو ما ينطوى على الكذب ؟ فقول الصدق كله يتضمن توجيه اللوم لزوج مسز تشـــارمان ـ وذلك ما لم يكن يحتمل التفكير فيه .

وفى مساء الغد كانت تلك المشكلة ما زالت تقلقه ، وقد وصل الى بيت مسز تشارمان دون أن يتخذ قرارا . وفى حجرة الاستقبال وجـــد ثلاثة أشخاص ينتظرونه : المضيفة مع الابنة ، مسز وير ، وزوجها السيد وير . كادت دموعه تسيل لحرارة اللقاء ، واضطربت فى نفســـه مشاعر كثيرة أشد الاضطراب ، ففقد رشده ، وراح يخبط فى حديثه خبط عشـــواء . وكانت نتيجة ذلك قصة غريبة كل الغرابة الى حد انه ما رواها حتى ملكه الذهول من أمره .

جاءت تلك القصـــــة جوابا عن السؤال الطبيعى : أين كان مسكنه .

ابتسم ببلاهة وقال : « الآن أسكن حجرة للجلوس والنوم فى شارع صغير فى اسلنجتون . »

ساد الصمت بعد ذلك ، وتركزت عليه عيون دهشة ومن يدرى ماذا كان عساه أن يقول لولا تلك العيون ؟ على كل حال ..

« قلت يا مسز تشـــارمان انه كان على أن أعترف بشذوذ فى أخلاقى ، وآمل الا يصدمك هذا . وجملة القول انى وهبت نشاطى الضعيف للخدمة الاجتماعية ، فانا أعيش بين الفقراء ، وكأنى واحد منهم ، لأحصـــل على ما يستحيل الحصول عليه بطريقة أخرى من المعرفة .

فصاحت المضيفة : « آوه ، ما أنبلك ! » .

وخز السيد الفقير ضميره وخزا شديدا ، فانعقد لسانه . وقد انتقل أصدقاؤه بالحديث الى موضوع آخر كيلا يؤذوه فى شعوره ، ولم يعن لهم حينئذ أو بعد ذلك أن يرتابوا فى حقيقة ما قال . فقـــد رأته مسز تشارمان يباشر أعماله

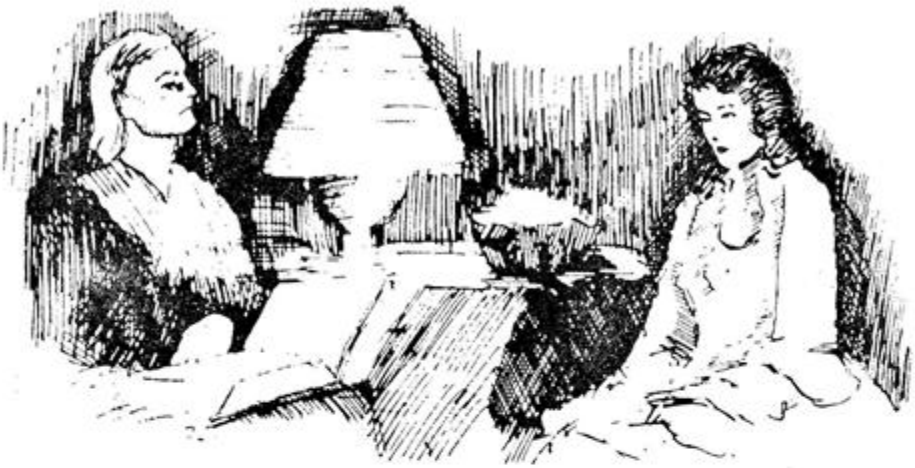

فى بنـــك انجلترا ، وهو مكان لا يوحى بالفقر ، وفضلا عن ذلك عرف الرجل دائما بعض الشذوذ فى آرائه وسلوكه . وهكذا اقترف السيد تمبرلى خدعة غريبة ، وغشا يتعذر اكتشافه فى سهولة ، ولا يسيىء الا لمن اقترفه دون سواه .

مضى نحو العام منذ ذلك الوقت ، وقد لقى فيه السيد تمبرلى أصدقاءه بين حين وحين ، ولم يكن يعكر صفو استمتاعه القوى البـــاعث على الاشفاق بصحبتهم الا ايسر اشارة الى اسلوب حياته . ولكنه وقد اصبح معروفا بأنه اتخذ عمل الخير فى خفية مبدءا له ، كان يندر أن يعمد الى العودة الى الكذب . صحيح انه لم ينقطع عن الندم على أكذوبته الأولى ، فاكبر الظن ان مسز وبر ، وهى امراة ثرية ، ربما هدته الى سبيل كريم يكسب منه رزقه . ومهما يكن من شىء فقد استقر رايه على ان يكون مجلدا للكتب ، وهى حرفة تلائم ذوقه . وقد واتته الشجاعة ذات يوم بعد أن أقام بضعة أشهر فى بيت مجلد الكتب ، فاتفق معه على أن يجزيه على تعليمه الحرفة بأن يعمل له ، حين يحـــذقها ، فترة دون اجر . وقد اقبل الآن على تلك المرحلة ، واحس بوجه عام أنه اسعد حالا مما كان فى فترة الخمول بما كان يغشاها من خواطر حزينـــة . وجعل يتطلع الى اليوم الذى تزداد فيه النقود قليلا فى جيبه ، ولا يعود يخاف ، خـــلال آخر اسبوعين من كل ثلاثة اشهر ، تلك الليـــالى التى كان يقضيها بغير عشاء .

كلفته دعوة مسز وبر الى لوسيون الما ممضا . لوسيون ؟ حقا ان اعتباره الاجازات الممتعة امرا طبيعيا ، كان فى حياة سابقة . تمثل كثيرا من امكنة جميلة عرفها ، ومناظر طبيعية ساحرة كتلك التى ترى فى حلم ، وقد جعلتها الآن شوارع لندن تبدو نائيـــة فى اقاصى الارض ، بعيدة عن عالم الحقيقة كل البعـــد . وبدت له سنوات البؤس والشدة الثـــلاث ، اطول من كل حياة القناعة الوادعة التى سبقتها . لوســـين ! لو ان رجلا اعنف مزاجا خطرت له فكرتها لجن جنونه ، ولكن السيد تمبرلى ظل يحنو عليها طوال النهار ، ولم يعبر عن مشـــاعره باكثر من زفرة خافتة او ابتسامة مشوقة حزينة .

شعر بان واجبـــه ، وقد تعشى فى الليـــلة السابقة عشاء طيبا ، ان ينفق اقل مما اعتاد فى وجبات يومه . وفى نحو الســـاعة الثامنة من المساء ، بعد مشية فى الهواء استسلم خلالهـــا للتامل ، مشية كان يثنى عليهـــا اكبر الثناء ، دخل الحانوت الذى الف أن يشترى منه حاجاته

المتواضعة . ومن وراء الخوان أومأت له في غير كلفة امرأة ممتلئة ، وشفتاها تنفرجان في غضب لعميل آخر . انحنى السيد تمبرلي على عادته المهذبة ، ثم قال :

« أسدي الى معروفا باعطائي بيضة طازجة وخسة صغيرة غضة . »

فقالت المرأة : « واحدة فقط هذه الليلة ؟ » .

فاجاب وكأنه يتكلم في حجرة استقبال : « أشكرك » ، واحدة فقط ، واغفري لي اذا عبرت عن املي أن تكون بيضة وضعت حديثا بالمعنى الدقيق . فانه يخيل الى أن آخر بيضة دخلت هذا الصندوق خطأ ، وهي غلطة يمكن اغتفارها لزحمة العمل . »

فقالت صاحبة الحانوت الممتلئة : « ان البيض كله سواء ، ولسنا نتورط في مثل هذا الخطأ . »

« آه ، سامحيني ! ربما تصورت . »

وضعت البيضة والخسة بعناية في جعبة صغيرة كان يحملها ، وعاد الى بيته . وحين فرغ من وجبته بعد ساعة ، وجلس وقت الغروب مستغرقا في التفكير على مقعد قائم الظهر ، سمع نقر على بابه ، وسلمت اليه رسالة . ارتعدت يده وهو يتفحص الغلاف ، فقلما كانت تصل اليه رسائل . وقد زاد من انفعاله أنه عند فض الغلاف كان أول ما رأى صكا . فتح الورقة المكتوبة ووجد أن مسز وير هي التي بعثت بها اليه ، وهذا نصها :

« عزيزي السيد تمبرلي ـ لم أطق بعد حديثنا في المساء السابق الا أن افكر فيك وفي حياة التضحية الجميلة التي تحياها ، وقد وازنت بين ما قدر لهؤلاء الفقراء وبين حياتي التي لا يملك أحد الا أن يشعر بأنها ملأى بألوان المتاع ، وبأسباب السعادة التي لست جديرة بها . وبهذا التفكير أحس حافزا يدفعني أن أرسل لك هبة صغيرة أسهم بها في عملك الخير ـ أرسلها قربان شكر وأنا على وشك الرحيل لقضاء اجازة هانئة . تفضل بتقسيم النقود بين اثنين أو ثلاثة ممن يشكون أشد الحاجة بين من تتصدق عليهم ، أو أعطها كلها لشخص واحد اذا رأيت ذلك ملائما . وان أملي لوطيد أن نراك في لوسيرن ـ وتقبل أطيب تمنياتي . »

كان الصك بخمسة جنيهات . رفعه السيد تمبرلي الى النافذة وأنعم النظر فيه ، وبدت له الجنيهات الخمسة مقدارا ضخما من المال بالقياس الى مستواه الحاضر . تصور ما يستطيع المرء أن يصنع به ! لم يكن حذاؤه الذي أصلحه مرتين ليبقى لائقا للاستعمال طويلا . وقد بلغ سرواله آخر مرحلة يمكن أن يظهر به فيها . والقبعة التي يلبسها ـ وكم كان يتعهدها بالعناية ! ـ كانت هي بعينها التي أقبل بها منذ ثلاث سنوات الى لندن . حقا انه كان في حاجة الى ملابس جديدة من الرأس الى القدم . وفي اسلنجتون كانت خمسة جنيهات أكثر مما يحتاج الى انفاقه في هذا السبيل . متى ، خبرني أتوسل اليك ، يحتمل ان يكون في حوزته مثل هذا المبلغ ليتصرف فيه كما يشاء ؟ .

تنهد تنهدا عميقا وحملق في العتمة من حوله .

كان الصك من النوع الذي لا يصرف الا لصاحب رصيد في مصرف ، وقد تبين السيد تمبرلي لأول مرة في حياته أن مثل هذا الصك قد يكون مصدر متاعب كثيرة لمن يتسلمه . كيف كان له أن يصرفه ؟ عرف أن صاحب بيته رجل فظ موسوس ، وأيقن أن رفضه أداء هذا الصنيع له ، بتلك النظرة التي يعرف كيف يوجهها ، سيعرضه لشعور أليم بالهوان . لمن اذن يستطيع أن يلجأ ؟ لم يكن في لندن أحد قط يستطيع أن يلجأ اليه .

مهما يكن من أمره ، فأول ما كان ينبغي أن يفعل هو أن يجيب عن رسالة مسز وير . اضاء مصباحه وجلس الى المنضدة البالية الصغيرة

المصنوعة من خشب الصنوبر ، ولكن قلمه انغمس فى المداد غير مرة قبل ان يجد نفسه قادرا على الكتابة .

« عزيزتى مسز وير » .

ثم طالت وقفته حتى بدا ان النوم قد غلبه . ثم انتفض وعاد فانحنى يؤدى عمله .

« انبئك بعرفان صادق للجميل بتسلم هبتك البارة الكريمة . النقود .. » ومرة اخرى توقفت يده بضع دقائق .

« ستستخدم وفقا لرغبتك . وسأقدم لك حسابا مفصلا للمنتفعين بها . »

لم يجد الانشاء بهذا العسر من قبل ، واحس انه عبر عن أفكاره أسوأ تعبير ، وان عقله كان ينوء تحت عبء ثقيل ، وان انجاز الرسالة كلفه جهدا جسديا . وحين فرغ منها خرج واشترى طابع بريد من حانوت تبغ وأسقط الرسالة فى فى صندوق البريد .

كان حظه من النوم فى تلك الليلة قليلا . فعندما استلقى فى فراشه ، بدا يتامل اين يجد اولئك الفقراء الذين يحق لهم المشاركة فى هذا الاحسان . لم يعرف فى حقيقة الأمر تلك الطبقة التى دارت بخلد مسز وير . كانت كل الأسر من حوله فقيرة فى معنى من المعانى ، ولكنه تساءل أكان معنى الفقر عندها معناه عنده ؟ هل من الحق أن يدعى رجل أو امراة فى ذلك الشارع القذر فقيرا اذا قورن هو به ... وقد رجح فيما تصور انه كان فى ذلك الشارع الرجل الوحيد الذى يحس الفقر ويعانى منه .

استيقظ من نعاس مزعج بفكرة واضحة ـ ذكرى احس انها تستبد بعقله : من الذى سبب سقطته من حياة الميسورين الكريمة ، والوان البؤس التى طالما عاناها ؟ والد مسز وير . ومن وجهة النظر هذه ألا يمكن اعتبار صك الجنيهات الخمسة تعويضا عما لحقه من اذى ؟ الا يجوز له انفاقها فى قضاء حاجاته العاجلة دون سواه ؟

ثم افضت اغفاءة قصيرة اخرى الى فكرة غريبة ثانية : لم لا تكون مسز وير ـ وهى امراة حصيفة ـ قد شكت فى حقيقة امره ، بل استشفتها ؟ لم لا تكون قد قصدت سرا ان تكون النقود له ؟ .

بددت طلائع النهار تلك الفكرة ، ولكنها قوت من جهة اخرى ما تذكر من أن السيد تشارمان كان فى حقيقة الأمر مدينا له . قفز من فراشه ليصل الى الصك ، وظل مستلقيا ساعة ممسكا به فى يده ، ثم نهض وبطريقة آلية ارتدى ملابسه .

ولما فرغ من عمل اليوم جعل يمشى مشيا هينا فى شارع به حوانيت كبيرة ، واسترعى انتباهه حانوت احذية ، فاطال الوقوف امام معروضاته ، يقلب فى جيبه جنيها كان جزءا غير يسير مما بقى له من مال للنهوض باعباء العيش حتى يحل يوم الارباح . ثم تخطى العتبة .

لم يرتكب امرؤ حماقة اكبر من تلك الحماقة التى ارتكبها فى شراء زوج من الاحذية . تم شراؤه له فى حلم ، فكان يتكلم ولا يسمع ما يقول ، ويحملق فى الأشياء ولا يراها . وقد ترتب على ذلك انه لم يتنبه الى أن الحذاء الجديد يؤلمه اشد الألم الا حين بلغ بيته يحمل تحت ابطه حذاءه القديم المريح . وكان يئز ايضا : يا للسماء ! ما كان أشد ازيزه ! لا شك أن ذلك من عيوب الأحذية الجديدة كلها . ولكنه نسى ، فهو لم يشتر حذاء منذ وقت طويل . وفى الحق انه كان مكدودا خائر القوى ، فاوى الى مضجعه بعد عشاء سريع ضئيل .

نشبت بينه وبين حذائه الجديد حرب طول الليل ، فبقدمين مجروحتين راح يظلع فى الشوارع فى مدينة اشباح ، بدا له فيها شخص يتربص به فى كل منعطف ، ولم يكن هذا العدو الذى استخفى كل مرة فى طريقه سوى مسز وير : كانت تنعم النظر فيه بعينين مزدريتين ، وتدعه يمر بها متعثرا . وكان ازيز الحذاء صوتا يتكلم ، صوتا يصرخ فى وجهه باسم مخيف . انكمش وارتعد وتأوه ، ولكنه واصل سيره ، لانه يحمل فى يده ذلك الصك العسير الذى طلب اليه ان يصرفه ، وما من احد يصرفه له . يا لها من ليلة ! .

ولما استيقظ كان عقله ثقيلا ثقل الرصاص ، واما تفكيره فكان واضحا كل الوضوح . ولكن ، خبرني ، ما الذى عناه بذلك الجنون حين انفق مالا لم يكن ليسعه انفاقه على زوج جديد ـ بغيض ـ من الاحذية ؟ كان يمكن ان يحتمل القديم على كل حال حتى أول الشتاء . ماذا دار فى رأسه حين دخل الحانوت ؟ هل قصد .. ؟ وارحمتاه ! .

لم يكن السيد تمبرلى يتعمق فى دراسة النفس البشرية ، ولكنه رأى فى الحال بوضوح مخيف تلك الأزمة الأخلاقية التى كان يجتازها ، ولقد علمته حقيقة جديدة فى موضوع الفقر .

هبط فى السلم بعد الافطار مباشرة ، ونقر باب الحجرة التى كان يشغلها السيد سجز .

فسال مجلد الكتب الذى كان ياكل شريحة اللحم الكبيرة الرابعة ، بفم ممتلىء :ـ « ما الأمر ؟ » .

« أرجو أن تأذن لى يا سيدى فى التغيب ساعة أو ساعتين هذا الصباح ، فان امرا ذا بال يتطلب ان أعنى به . »

فاجاب السيد سجز بالكياسة الطبيعية فى طبقته : « أظنك تستطيع أن تفعل ما تشاء ، ولكنى لن أدفع أجرا . »

انحنى السيد تمبرلى وانصرف .

انقضى يومان ، ثم انشأ رسالة اخرى لمسز وير ، هذا ما ورد فيها :

« قسمت الآن النقود التى تفضلت بارسالها ، والتى انبأتك بتسلمها . ولكى استوثق من استخدامها استخداما سليما ، اعطيت الصك مقرونا بأوامر واضحة لقسيس فى هذا الحى ، وقد تكرم بأن سجل فى الورقة المرافقة مذكرة بالمنتفعين ، آمل أن ترضيك وتطيب بها نفسك . »

ولعلك ستتساءلين لماذا لجأت الى قسيس ، ولماذا لم افد من خبرتى واحظ بسرور مساعدة الفقراء الذين اهتم بأمرهم اهتماما شخصيا . انا الذى وهبت حياتى لرسالة الرحمة هذه ؟ .

الجواب بسيط وواضح . لقد كذبت عليك .

فانا لا اقيم فى هذا المكان مختارا ، ولم انصرف الى عمل الخير . فلست ـ لا ، لا ، لم اكن ـ الا سيدا فقيرا وجد يوما انه فقد ماله فى مضاربة خرقاء ، وفى خجله أن يسر الى أصدقائه بذات نفسه ، توارى عن الانظار ليحيا حياة بائسة . ترين اني أضفت العار الى الكارثة . ولن أخبرك كم كنت قريبا من فعل ما هو أسوأ .

وانى منذ حين أتعلم حرفة ستمكننى من غير شك ان اضيف شيئا الى مواردى الزهيدة ، وأصبح أحسن حالا مما كنت حتى الآن . أضرع اليك ان تغفرى لى اذا استطعت ، وان تنسى منذ الآن .

من هو غير خليق بصداقتك
س . ف . تمبرلى .